الشّخصية الرّوائيّة بين المرجعيّة التّاريخيّة والمُتخيّل السّرديّ

مقاربة تحليلية لثلاثيّة " أرض السّواد " لعبد الرحمن منيف

د/عبد الرحمان بن يطو
جامعة محمد بوضياف . المسيلة-(الجزائر)
benyettouabr60@gmail.com

الملخص :

اشتغل عبد الرحمن منيف منذ البداية على توظيف التاريخ في كتاباته السّرديّة ؛ فجاءت رواياته خماسية (مدن الملح) وثلاثية (أرض السّواد)، تحمل طابعا ملحميّا توثيقيّا يتداخل فيه الواقعي بالمتخيل وتتشابك العلاقات بين الشّخصيّات الروائيّة وتتعقّد العلاقات ؛حيث يتماس الواقع بالتاريخ ، وكأنّ الرّجل يكتب التاريخ ولكن بمنطق الروائي المبدع وليس بمنطق المؤرخ المحقّق ، ومن هنا تحصّنت البنية السّرديّة عند منيف بالتاريخ بكلّ إحداثيّاته التي أعادت صياغة جغرافيا الصّحراء العربيّة ماديّا وفكريّا ؛ لتنتج في الأخير إنسانا عربيا مختلفا في توجّهاته الثّقافيّة وتقاسيمه الهُوياتيّة .

الكلمات المفتاحيّة : الشّخصية ، التخييل ، التّاريخي ، الهُوية ، المساءلة ، الأنتروبولوجي .

Abstract :

Abdul Rahman Munif worked from the beginning to employ history in narrative writing, so his five novels (cities of salt) and trilogy (land of blackness) came with an epic and documentary nature where events overlapped and interwoven relationships between characters where fact partly touch upon history, the man writes history as creative novelist not with the logic of detective historian, here some of Munir's narrative structures were fortified with history with all its coordinates which redrafted the Arabic desert geography materially and intellectually, to produce at the end last an Arab human being, different in his cultural orientations, and his identity features.

البحث:

تتألف رواية " أرض السواد " من ثلاثة أجزاء بما يعادل ألف وخمسمئة صفحة تعالج فترة محدودة ومكثّفة بالأحداث من تاريخ العراق الحديث ، في ظلّ الحكم العثماني بين (1815 . 1831) ، تجسّد طبيعة الصراع بين داود باشا وحاشيته و بين القنصل البريطاني ريتش ومعاونيه الأول محسوب على ابن البلد والثاني الأجنبي ، الذي يمثّل إرادة المحتلّ و يريد أن يرسم خريطة السّلطة في العراق على مزاجه ، إنّه شكل من أشكال المساءلة للتاريخ من منظور الحاضر؛ إنّ ما يحدث الآن في الحاضر هو نتاج أحداث تاريخيّة قد خلت ، فتدخل شخصيات الرواية في صراع ومؤامرات ودسائس بين الشّخصيات الفاعلة المُنجذبة نحو إغراءات السّلطة ، حيث تتماس المرجعية التاريخية بالمتخيل السردي عند عبد الرحمن منيف " تُسائل أرض السّواد فترة محدّدة من تاريخ العراق الحديث ، حدودها الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وما يزيد عليه قليلا ، وهي في خيارها، المحدّد بزمانه ومكانه وشخصيات منه ، تذهب إلى الوثيقة التاريخيّة ، وتعيد كتابتها بشكل آخر، لكنها وهي تحوّل الوثيقة إلى رواية ، تمحو الحدود بين الرواية والرواية التاريخيّة ، مؤكّدة

وجود الرواية ، دون نعت وصفة ، فلا فرق بين الرواية والرواية التاريخيّة إلاّ من منظور مأخوذ بالتصّنيف والأحكام الشّكلانيّة فكلاهما يقرأ التاريخ من أحوال البشر ويتأمّل معنى التاريخ في مصائر إنسان " (1) وقبل الولوج إلى عوالم الرواية علينا أن نتوقّف عند عنوان ثلاثية " أرض السّواد " ، بحيث عوّدنا منيف بعناوين تنبض بشعريتها المتوهّجة كعنوان خماسية " مدن الملح " ، ورغم ذلك لا يمكن أن نغُضّ الطّرف عن ملحق العنوان أي (الثلاثية) فالعدد ثلاثة في الموروث العربي له دلالته الغائرة في الثقافة العربيّة ، ويمكن أن نفكّ شفرة العدد (ثلاثة) من خلال شكل المثلّث الذي يُفسّر عند علماء الاجتماع بالأسرة التي تتكوّن من ثلاثة عناصر أساسيّة هي ما تنهض علية العائلة ، والأسرة كما نعلم هي النّواة الأولى للمجتمع بينما هي النواة الأولى للقبيلة في البنية الاجتماعية الكبرى ، وبعبارة أخرى أنّ القبيلة في جوهرها وأصلها ما هي إلاّ أسرة في مرحلة من مراحلها . (2) أمّا عن الوحدة المعجميّة (الأرض) فقد وردت في القرآن الكريم مُفردة ولم ترد بصيغة الجمع لأنّ الأرض واحدة موحّدة لا تتجزّأ لقوله تعالى : " والأرضَ وضعها للآثام " (3) ، وأنّ أيّ جماعة بشريّة لابدّ لها من حيّز جغرافي تنتسب إليه و تذود عنه بالنفس والنّفيس ؛ وهي تأخذ لها دلالة ماديّة ، بينما الوحدة المعجميّة الثانية (السّواد) ، فيمكن أن نختزلها في هيمنة اللون الأسود على مظاهر الحياة في المجتمع العراقي الذي يتجاوز القيمة الذّوقيّة كلون محايد إلى القيمة الأنتروبولوجيّة القائمة على اللباس الأسود عند النساء عموما وعند الرجال المتمسكين بشعائرهم الدّينيّة على وجه الخصوص، فاللّون الأسود عند الطائفة الشيعيّة يعني شرف النّسب والولاء لآل البيت ، وباجتماع الوحدتين أرض(دلالة مادية) + سواد (دلالة معنوية)، يضاف إليهما دلالة العدد (ثلاثة) يتبيّن لنا أن العنوان يحمل في جوهره دلالة الهُوية والانتماء بكلّ ما تحمله من عروبة وإسلام وانتساب إلى الوطن .

يستهل منيف روايته بحدث مفصلي هو موت سليمان باشا الكبير حيث تحلّق حوله أبناؤه وأصهاره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة و الحصرة لا تفارقه عن مصير الولاية " إذا كنتم قلبا واحدا ، وبينكم محبة لا يتسلّط الغريب وتحوزون الدّولة التي اقتنيتها ،إلاّ متى تفخذهم عن بعضكم يأتي الغرباء من الوزراء ويبدلون الدولة والعائلة . " (4) واختار الكاتب الدخول إلى الرواية من منظور الشّخصية العراقيّة الفاعلة وما تمتلكه من مقوّمات ثقافيّة وتاريخيّة تضرب بجذورها في عمق التاريخ وحضاراتها المتعاقبة الأكاديّة ، والسّومريّة والبابليّة والآشوريّة إلى غاية الفتح الإسلاميّ ، إذن فالإنسان العراقي عضو مؤسس لأبجديات الحضارة الإنسانيّة بدون منازع ولذا اهتدى منيف إلى هذه التّقنية الذّكية ليتحدّث عن التاريخ العراقي ولكن هذه المرّة من بوابة أخرى هي الشّخصية العراقيّة المقاومة لكلّ أشكال الظلم والعدوان ؛ والمناهضة للتّطبيع مع الآخر مهما كانت ذرائعه ومصوّغاته .

وكانت الشّخصية الروائية دوما تشكّل عنصرا حيويا داخل البنية السّرديّة للرواية ؛إذْ من خلالها يتقاطع عنصرا المكان والزّمان في نقطة حسّاسة هي الحدث ، وبطبيعة الحال وراء كلّ حدث فاعل يتجسّد

في الشخصية ؛ إذن من هنا تأتي أهمية الشخصيّة الروائيّة باعتبارها قضية لسانيّة بالدرجة الأولى ، لا وجود لها خارج الكلمات لأنها ليست سوى كائنات من ورق (être de papier)(5)

ولذا يأتي الحديث عن شخصية داود باشا في " أرض السواد " ؛ كشخصية لها كاريزمة خاصة تطبعها خصوصيّة عراقيّة بكلّ مقوّماتها ، من خلال قدرتها على الاستيلاء على عقول الناس والتأثير عليهم وهي شخصية فاعلة داخل السياقات المختلفة في الرواية من خلال علاقاتها المتشابكة مع الآخرين ،علما بأنّ تحديد الحجم الروائي للشّخصية يُستشف من طبيعة علاقاتها التي تنشئها مع الآخرين فهي شخصية ذكية تضطلع بأهم الأحداث " الشخصية التي تتصرّف من موقع ما ، وتعطي لنفسها حق التّدخل في تقرير مصير الفرد أو الأفراد الذين تطالهم سلطتها " (6) وإذا كانت الشخصية العامة هي جزء من التاريخ العام للمجتمع ؛ فهي بالمقابل تختزل بطريقة ما في سيرتها الخاصة فترة من تاريخ هذا المجتمع أو ذاك ، ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها رواية " الأمير" لوسيني الأعرج ؛ هذه الرواية السيريّة تختزن بين طياتها جزء هام من تاريخ الجزائر بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 ، ومقاومة الشعب الجزائري للغزاة بقيادته ، إذن الحديث عن الأمير عبد القادر يحيلنا حتما إلى المقاومة الشّعبيّة الجزائرية في بداية القرن التاسع عشر. ومن هنا يصحّ القول إنّ الشخصية حاملة لفضائها بكلّ ما يقتضيه من مُركّبات ثقافية واجتماعيّة ونفسيّة ومزاجيّة و كلّ ما يتعلّق بمظاهرها الخارجيّة الماديّة ؛ إذْ " تشكّل الشّخصية في الرواية عنصرا هاما من عناصر العمل الروائي ولا تظهر تلك الأهمية إلاّ بعد أن يتمّ ربطها ببقية العناصر الأخرى ، ولاسيما المكان الذي يمنح تلك الشخصية الهُوية التي تميّزها عن باقي الشخصيات الأخرى ، لذلك فإنّ العلاقة بين الشّخصية والمكان تتعدّى حدود العلاقة الشكلية لأنّ المكان لم يعد إطارا خارجيّا جامعا لحركة الشّخصيات ، بل إنّ المكان الروائي تجاوز وجوده السّطحي المرتكز على البُعد الجغرافي الفيزيائي ، فقد أصبح يُحدّد سلوك الشّخصية واتّجاهاتها ، زيادة على أنّ تقاليد المكان وأعرافه تحكم نفسية الشخصيات وممارستها ، يحتلّ المكان دورا بارزا في الكشف عن عالم الشخصية النفسيّ ،إذ أنّ المكان يقوم بتجسيد إحساس الشخصية (7)

ولكن لا يمكن العثور على تقاسيم الشّخصية إلاّ من خلال هذه العناصر المُنَشطيّة في تلافيف النّص وبقراءة متأنية تُمكّننا من التقاط أجزاء الصورة التي تعطينا في الأخير ملامح الشّخصية الداخلية والخارجيّة، " وهو ما يشكّل في النهاية سيرة ذاتيّة عن هذه الشخصية ، وإن كان توزيع المعلومات التي تخص هذه السيرة لا يخضع في الرواية لمنطق التتابع الزمني ، على مستوى زمنية الخطاب ،إنما نعثر على تلك المعلومات متفرقة في ثنايا النص ، وعلى القارئ أن يتكفّل بعملية جمعها ، إعادة تنظيمها وفق منطق زمني خطي ، يتسنى له من خلاله تتبع سيرة داود ، بداية من مرحلة طفولته إلى أن يصبح واليا على بغداد . "(8) إنّ اهتمامنا بهذه الشّخصية متأتٍ من كون مسارها التاريخيّ الذي تصطبغ به سيرتها الذّاتيّة متّصل بتاريخ العراق الحديث من جهة، ومن جهة أخرى ساقتها الظروف العجيبة إلى أعلى هرم السّلطة أي صار الرجل واليا على بغداد وهو

الرجل المضطرب في نسبه " جئ بداود طفلا صغيرا وبيع في بغداد ، وكيف أنّ سليمان الكبير اشتراه ، واعتنى به وهذّبه إلى أن كبُر، فوثق به وقرّبه ، وكدليل على تقريبه زوّجه ابنته " (9) ، إنّ هذه الجزئيّة لها ملمح تتناص فيه مع قصة سيدنا يوسف عليه السلام، حين باعه إخوته بثمن بخس وشاءت الأقدار أن من اشتراه هو عدوّه عزيز مصر وكرّم مثواه حتى صار يافعا وأُسندت له مسؤولية تسيير شؤون خزائن مصر ، وقد يكون هذا الفتى لا يمتّ بصلة للعرب ما دامت الأقدار هي التي ساقته لسراي الوالي ، وهذا ما عبّر عنه خصمه اللدود القنصل البريطاني الذي وجد في مواجهته شخصا صعب المراس، فهو يراه ذلك " الجورجي بمقدار ما يبدو طيّبا وبسيطا فهو شديد الخطر ، تماما كالمياه السّاكنة ،إذْ لا يدرك عمقها ، ولا يعرف ماذا تخبي في باطنها . "(10) وأخذ من الحياة في سراي سليمان الكبير الأشياء الكثيرة منها التّربية الخاصة التي عادة ما يحظى بها أبناء الملوك وعلّية القوم .ومن ذلك مبدأ التّرفع والكبرياء الذي يطبع عادة الكبراء والوجهاء كقول الباشا ناصحا له : " اجعل كلّ إنسان محتاجا إليك ، وأنت لا تحتاج ولا تعتمد على أحد بشكل كلّي أو بصورة دائمة . " (11) ، فهو يعزّز فيه روح الاستغناء عن الغير وفي نفس الوقت يكرّس فيه روح الاعتماد على النّفس وكأنّ الرجل يؤهله لأمر ما في المستقبل لا يحظى به أيّ إنسان في المجتمع .والشّخصية عادة لا تعرف إلاّ بماضيها ؛ فهو الكفيل بتفسير حاضرها فـ " داود بدأ عسكريا منذ نعومة أظافره ، واكتسب الكثير من الخبرة في رحلته الحافلة ، سواء بالمعارك التي خاضها ، أو بالمدة الطويلة التي قضاها في السراي " (12) مع العلم أنه في سابق عهده لم يكن يكترث بالسياسة بل وزهد فيها حتى جاءت لحظة التّحوّل المفاجئة " ذهب إلى البصرة عازفا عن أية مشاركة بالسلطة ، منصرفا إلى الدراسة ،ثم لما عاد إلى بغداد تحوّل إلى مجاور لسيدي عبد القادر ، وتغير بملابسه وطعامه وسلوكه ، أصبح واحدا من رجال الدين لكن حين شعر إنّ ساعته قد جاءت ترك المقام وهجر الدفاتر وعاد كما كان أيام سليمان الكبير: لا يفكر إلاّ بالسياسة، ولا يعرف غير القوة لتنفيذ ما يريد " (13)

لقد ساهم عنصر التّخييل في عوالم الرواية بحيث أضفى عليها طابعا فنيّا يرتقي بها إلى مستوى العمل الإبداعيّ ويتحاشى في نفس الوقت التّعامل مع الوقائع الروائيّة بطريقة تسجيليّة التي تضعف من قيمة الوظيفة الأدبية للرواية . " فالتخييل يستلهم عوالمه من الواقع ويقصد إلى إعادة بنائه في صورة يعتقد المرسل أنها النموذج الذي يجب أن يكون عليه ، ومن ثم فإن عوالم التخييل تتداخل فيها الكيانات التّخييلية والكيانات الواقعية . " (14) وحين آل إليه كرسي الحكم وصار واليا على بغداد راح يفكّر بطريقة مختلفة تماما عمّا كان عليه من قبل ؛ فهو يرغب في تغيّير كثير من السّلوكات التي تطبع كلّ مناحي حياته الخاصة ؛ في اللباس والأكل والمشرب وطريقة الكلام ، بل المطلوب من حاشيته هي الأخرى أن تتغيّر أيضا حتى تكون في وضعية تناسبه ؛ وبعبارة أخرى " لأنه الوالي الآن ، يجب أن يكون مختلفا عن السابق ، بالسلوك ، بالتصرف ،ومتى يجب عليه أن يتكلّم ومتى يجب عليه أن يصمت . لقد انتهى دور التّعبئة والتّحريض ، وحسمت معركة الكلام منذ اللحظة التي دخل فيها بغداد .. حتى الأصدقاء الذين تعودوا عليه قبل أن يصبح واليا ، يجب أن يتعودوا بعد أن صاره ، معنى ذلك أن يتغيروا عن السابق ، لأنه ذاته تغيّر ، لم يعد داود المطارد أو الهائم في

الجبال ، إنه الآن الباشا ، والمنصب ذاته يفرض طريقة جديدة في التعامل " (15) ، وهذا ما أثار انتباه القنصل البريطاني " ريتش " الذي وجد في هذه الشّخصية المختلفة الدّهاء والقوة ومن ثم فعليه إعادة ترتيب علاقاته ومراجعة حساباته معه إنه ليس سهلا ولابد عليه " أن يعيد ترتيب علاقاته ، وأن يختبر تحالفاته ، لأنه الآن بمواجهة والٍ من نمط مختلف " (16) ، وكان الهمّ الكبير الذي يشغل بال الوالي داود باشا بعد أن تمكّن من الحكم هو تأسيس عائلة كبيرة قوية برجالها ونسائها، هذه العائلة تحافظ على الحكم "ما كان يشغل داود باشا ،وقد لاحت الفرصة بعد طول انتظار ، دولة لم تقم مثلها منذ أقدم العصور ، ولعلّ أول شيء ينبغي توفره : أسرة كبيرة شديدة التّرابط ،لا يستطيع أن ينفذ إليها أحد من الغرباء . حتى البنات يجب أن يختار لهن أزواجا من الأقوياء " (17) ، إذن طموحات الرجل تتجاوز فترة حكمه إلى المستقبل هذه النظرة الاستشرافيّة يسعى من وراء تحقيقها إلى تأسيس سلالة في الحكم تنتسب إليه كمؤسس لهذه العائلة الكبيرة الحاكمة ورغم ذلك هناك بعض الأعداء الذين يتربصون به وقد يجهزون عليه في أية لحظة وبالتالي يجهضون حلمه ويحطمون آماله ، و هؤلاء الأعداء هم ثلاثة لا غير: السيد عليوي خصمه اللدود فمنذ أن انتصر في معركة (الفرات الأعلى)، والرجل يناصبه العداء ويتوجس به في السّر والعلن ، والخصم الثاني الذي يرغب في نهب ثروات البلاد هو القنصل البريطاني ريتش الذي يمثل رمزية المحتل الذي لا تنام له عين ، أما العدو الثالث ؛ وهو عدو يصعب ضبطه يتمثّل في البدو بقيادة شيوخ القبائل الذين شقوا عصا الطاعة والولاء.

ومن المؤشرات الدالة التي تساعدنا على معرفة شخصية داود باشا كشخصية مركزية في الرواية هي مكانة أعدائه وفاعليتهم في تحريك الأحداث الروائيّة ، فلابد أن يكون العدو من مستوى الباشا ومن هؤلاء الأعداء السّيد عليوي هذه الشّخصية الفتّاكة والطّموحة إلى السلطة والمنافسة للوالي داود باشا ، يضاف إلى ذلك غروره ونرجسيته المفرطة في حقّ نفسه وفي حق غيره إذْ تجرّأ يوما ووصف نفسه توصيفا فرعونيّا قائلا: " أنا ربكم الأعلى ويا ويل من يقف في وجهه " (18) يمكن لهذه الشّخصية أن تفعل أيّ شيء من أجل تحقيق مآربها المتخفية ، وكان على استعداد للتحالف حتى مع الشيطان ، ولم يتوان في التواطؤ مع الأجنبي المتمثل في القنصل البريطاني للاستيلاء على السلطة والإطاحة بحكم داود باشا ؛ وحين تفطن الوالي لأمره استدرجه من حيث لا يدري إلى بغداد ليلقى مصيره المشؤوم بطريقة قانونيّة بعد أن وُجهت له تهمة الخيانة العظمى وتمّت تصفيته بعد إدانته إدانة لا لُبس فيها ؛ ونطق القاضي بالحكم قائلا : " أصدرت المحكمة حكمها بإعدام الخائن سيد عليوي " (19) ، وهنا إشارة أنّ السلطة في العراق وفي البلاد العربية تتعامل بقسوة مع معارضيها وكل من تسوّل له نفسه التّطلّع إلى الحكم ومنافسة الحاكم ، فذاك خط أحمر محرّم التّفكير فيه وهكذا كان مصير السيّد عليوي ضحية طموحاته السياسية وتحالفاته المشبوهة .

أمّا الشخصية الثانية المثيرة للجدل في الرواية هو كلود . ج. ريتش ، القنصل البريطاني في بغداد " حين وصل ريتش إلى بغداد قنصلا عاما مفوضا لبريطانيا العظمى كان في أوائل العشرينات من عمره ." (20)

، انحرف عن دوره المنوط به كممثل دبلوماسي لدوله بريطانيا العظمى في بغداد حيث يُلاحظ على نشاطه أنّه مخالف تماما عن وظيفته ، فهو يقوم بدور استخباراتي يمت بصلة لدوره كدبلوماسي ؛من خلال تدخلاته وتحالفاته التي لا حدود لها ، المهم أنه يبحث عمّن يزوده بمعلومات تفيده عن حركات وسكنات الوالي داود باشا سواء من داخل كواليس السراي أو خارجه . " ولمّا كان ريتش شديد الحرص على معرفة كلّ شيء ، وألاّ تفوته الصغيرة والكبيرة ، فقد أوعز لرجاله أن يراقبوا ويتحرّوا أدق الأمور ، لكن الأكثر أهمية أن يكون موجودا داخل السراي وأن يسمع ويعرف كلّ ما يدور هناك ، خاصة وأنّ داود يختلف .. غيره من الولاة. (21) ، وعادة ما يكون في الأعراف الدبلوماسيّة أنّ القنصلية أو السفارة من حيث أهمية موقعها كبناية وضخامة حجمها تعكس طبيعة العلاقات بين الدولتين اللتين تتبادلان التّمثيل الدبلوماسي ، كما هو الحال بين العراق وبريطانيا ، إذ لوحظ أنّ القنصلية البريطانية في نشاطها اليومي تتجاوز دورها المحدّد في بغداد . " إذ ما كانت تمرّ شهور على استلامه العمل حتى أصبحت القنصلية البريطانيّة ، أو الباليوز كما أطلق عليه الناس في بغداد ، تضاهي السراي، بل وتتفوق عليها في كل شيء : التأثير العلاقات، الأهمية ، ومعرفة كلّ ما يدور في المدينة " (22) ، لأنّ القنصل كرمزية للاحتلال البريطاني وجد في شخصية داود شخصية عنيدة وصارمة لحدّ بعيد لم تتجاوب مع مطالب القنصل ؛ إذْ لم يستطع اختراقها والنيل منها كما تعوّد مع الولاة و المسؤولين السابقين ، فهذه الشخصية مستعصية ولابد من الوصول إلى نقطة الضعف فيها وتطويعها لخدمة المصالح البريطانيّة ولكن هيهات ، فقد تعوّد الولاة السابقون أن يتعاملوا مع القناصلة البريطانيين على وجه الخصوص بشيء من التّذلل والدونيّة ولكن الأمر هذه المرة مختلف مع داود باشا . وهذا ما ورد على لسان القنصل نفسه " إذا كان الولاة السابقون قد أتاحوا لي الشعور بالتّميز والأهمية ، فإنّ داود العدو الوحيد الذي يجدر بي أن أنازله لأثبت لنفسي ، قبل أن أثبت للآخرين ، كيف يمكن أن أحتمل الجروح والمعاناة ، وأن أحاول .. لست متأكدا من النصر ، لكنني متأكد أنني لن أُسلم ، ولن أخضع لما يريد .. وحالما أفلت من هذا الحصار ، سأعرف كيف أردّ عليه ، وألقنه درسا لن ينساه ." (23).

والغريب في الأمر أنّ القنصل البريطاني لم يفلت من سطوة النظرة الدونيّة للإنسان الشرقي العربي المشبّعة بقيم التّعالي والتّفوّق والتي تُستمدّ مرجعيتها من الأطروحة الاستعماريّة التي تؤطّرها المركزيّة الأوروبيّة ؛ القائمة على استعباد الآخر، والتي تتأسّس على نظرة فلسفيّة مفادها أنّ العالم سادة وعبيد ، وحدّدوا من هم السادة ومن هم العبيد حسب تصوّرهم ومنطقهم الاستعماري ،و" هؤلاء الشرقيون ملتبسون ومجبولون بالفوضى والتناقض ، لا تميّز فيهم الغني من الفقير ، أيّهم الطيب وأيّهم الماكر ، ومن هو الفرح ومن هو الحزين . بل أكثر من ذلك تبدو عليهم الغبطة حين يوقعونك في خطأ التّمييز أو لم تسعفك فراستك بالمقدار الكافي لتحديد الصفات والمراتب " (24) ، ولم يكتف بذلك بل راح يحدّد المسافات بينهم التي يراها لا تخضع لأيّ منطق سواء في وقت الصّدام أو التّصالح ، ولكن لا ننسى أبدا أنّ هذه الذّهنيّة متأتية غالبا من طبيعة التكوين والتعليم الذي نشأ عليه بالأمس قادة اليوم في المدرسة الكولونياليّة وما تحمله من قيم التّبعيّة للآخر والشّغف بالحكم من أجل استعباد الغير ومن يقع تحت طائلة حكمكم و هنا

تولّدت فكرة الاستبداد كظاهرة سوسيو سياسية في تاريخ الشّرق ولكن هذه الظاهرة في جوهرها صنيعة استعمارية . " عبقرية الشّرقيّين تتجلّى في حالة واحدة : يحتربون ويريقون الدّماء بسخاء ، ثم يتصالحون ، ولا تعرف لماذا تحاربوا وكيف تصالحوا ، وهذا ما يجعل اعتماد المنطق في تفسير هذه الحالة يقود تماما إلى الموقف الخاطئ " (25) ، ويختم موقفه بهذا الرأي الذي يكرّس أن الاستعمار له دور تغريبيّ مُؤسّس على إستراتيجية بعيدة المدى ،تُحفّز على التّخلّف والتّبعية والولاء للنزعة الكولونياليّة ، التي عادة ما تُسنَد هذه المَهمَّة للنّخبة التي صنعتها المؤسّسة الكولونياليّة والتي تبقى وفية لها ولمشروعها المعادي للمنظومة الثقافية والاجتماعيّة العربيّة . " أثناء زيارتي الأخيرة للمملكة المتحدة ، ولبعض الدول الأوروبية ، أدركت أنّ ما يفصل الشرق عن أوروبا ليس الجغرافيا أو الزمن ، بل ونوع العقلية أيضا " (26) ، وما نخلص إليه أن أعمال عبد الرحمن منيف تحفر في الذاكرة التاريخيّة للمنطقة التي يتحصّن بداخلها الوعي القومي العربي ، رغم كلّ الهزّات التاريخيّة العنيفة التي ضربت المنطقة العربية من خلال المدّ الاستعماريّ الأوروبي بداية القرن التاسع، وما يحمله من ضغائن وأحقاد مندسة في كيانه اتّجاه الشّرق تمتدّ خلفياتها إلى أيام الحروب الصليبيّة ،ونستطيع القول إنّ هذه الحروب هي من صنعت مُخيّلة الغرب المأهولة بمُعاداة الشّرق .

هوامش البحث :

(1) فيصل دراج ، أرض السواد ذاكرة التاريخ وتاريخ الذاكرة ،مجلة الكرمل ، ع64، (فلسطين)2000، ص2 .

(2) ينظر : عبد الرحمان بن يطو ،هوية المدينة وشكلنة الوعي الجمعي ، ،مجلة اللغة والأدب ، قسم اللغة العربية وآدابها ،جامعة الجزائر، ع18، نوفمبر2008، ص77 .

(3) سورة الرحمن ، الآية : 10 .

(4) عبد الرحمن منيف ، أرض السواد ، المركز الثقافي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، 2000، ،ص16،15.

(5) - Ducrot et T. Todorov : dictionnaire encyclopédique des sciences de langage ;ed. Seuil ;Paris1972;p:286

(6) . حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، (الفضاء ،الزمن، الشخصية)المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ،ط1،1990، ص479 .

(7) ينظر : جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا ، أسماء شاهين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1، بيروت 2001، ص 113.

(8) عبد الغني بن الشيخ ،فاعلية الشّخصيات ووظائفها السّرديّة في ثلاثية أرض السواد ، لعبد الرحمن منيف ، حوليات الآداب واللغات ، دورية علمية أكاديمية محكمة ،كلية الآداب واللغات ، جامعة المسيلة ، ع5،نوفمبر 2015 ،ص41.

(9) عبد الرحمن منيف ، م س ، ص231 .

(10) عبد الرحمن منيف ، م س ،ص259 .

(11) عبد الرحمن منيف، م س ،ص308 .

(12) عبد الرحمن منيف ، م س ،ص 265 .

(13) عبد الرحمن منيف ، م س ،ص403 .

(14) سعيد جبار ، من السّردية إلى التّخييليّة (بحث في بعض الأنساق الدلالية في السّرد العربيّ) منشورات الاختلاف ، الجزائر 2013 ،ص61 .

(15) عبد الرحمن منيف ، م س، ص110 .

(16) عبد الرحمن منيف ، م س ،ص266 .

(17). عبد الرحمن منيف ، م س ،ص280 .

(18) عبد الرحمن منيف ، م س ص485 .

(19) عبد الرحمن منيف ، م س ،ص538.

(20) عبد الرحمن منيف ، م س ،ص86/1.

21) عبد الرحمن منيف، م س ،ص259،258 .

(22) عبد الرحمن منيف، م س ص86 .

(23) عبد الرحمن منيف، م س ،ص 301،300 .

(24) عبد الرحمن منيف، م س، ص260 .

(25) عبد الرحمن منيف، م س ، ص182/181.

(26) عبد الرحمن منيف، م س، ص102 .